الحصة الثانية

إعَادَة تَعْريف الفَلْسَفَة في ضَوْء العَلَاقَة باليَوْمي

ضَرُورَة إِعَادَة تَعْرِيف الفَلْسَفَة

لا تستوفي التعاريف المدرسية والمعجمية الفلسفة حقها في المدلول الذي يرتحل بارتحال المفاهيم وتجدُّد الموضوعات. نُدرك حجم التحوُّل الدَّلالي الذي يطرأ على الفلسفة بتغيُّر الموضوعات والأزمنة. ما كان موضوعًا ثابتًا للفلسفة في الفترة القديمة، كثنائية الجسد والنفس والألوهية والخلود لم يعد له اهتمام بارز، أو على الأقل اختلفت طبيعة الاهتمام التي لم تعُد مدرسية ولا مثالية تسعى نحو «مَثَلٍ أعلى» من التَّفكير والسُّلوك، بل أضحت واقعية، ساعدتها الدَّعائم الأخرى في التفلسف كالجريدة والتَّلفزة عبر النقاشات والحلقات، وأمام تحدِّيات جديدة لم تشهدها الفترة القديمة كظاهرة العولمة والتقنية والذكاء الاصطناعي.

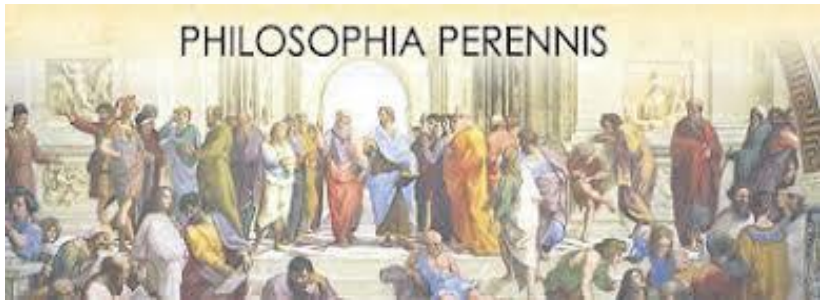

الفَلْسَفَة الخالِدَة

- نُقدِّم الأطروحة التي ترى بأنَّ مدلول الفلسفة يختلف باختلاف الموضوعات والسياقات التاريخية والفكرية. لكن، إذا أخضعنا الفلسفة إلى التطوُّر التاريخي في العقل البشري ألا يمسُّ هذا بالجوهر الخالد للفلسفة، أو «الفلسفة الخالدة» (perennis philosophia)، الذي يحتفظ بالعتبة الأصلية والمشتركة للإنسانية في ما وراء الاختلافات الإثنية والثقافية والمذهبية؟ أليس من الشَّرط الفلسفي أن تفلت الفلسفة من التعريف ويكون تعريفها هو أساسًا العجز عن تعريفها، لأنَّ ما تحمله لا يقبل «التَّوْضيع»، ولأنه يُعدُّ المشترك الإنساني بين الأقاليم الجغرافية والثقافية والأزمنة التاريخية بين الماضي والحاضر؟

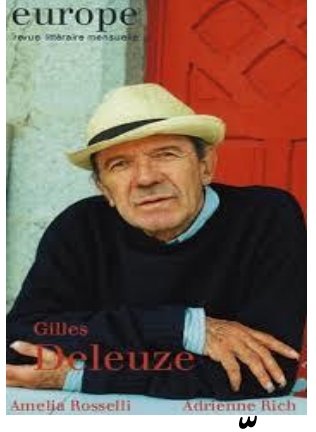

صِنَاعَة المفَاهِيم

إنّ إفلات الفلسفة من التَّعريف لا يعفيها من الامتثال إلى نمط معيَّن من «التَّحديد»، بوضع حدود جغرافية وفكرية معلومة كالتي اعتدَّ بها جيل دولوز في «**مَا هيَ الفَلْسَفَة**». إذا كان هذا الأخير قد أسند لها التَّحديد المستلهم من فلسفته عن الحدث والتطوُّر الخلاق للحياة، فقد قام باختزالها في الابتكار على أساس أنَّ الابتكار هو تجلٍّ من تجليَّات الحدث في فرادته والحياة في عطائها المسترسل: «إنَّ الفَلْسَفَة هيَ فَنُّ تَكْوين وإبْدَاع وَصُنْع المفَاهِيم». لهذا التَّحديد ما يُسوِّغه عند دولوز. سنقف عند تحديد آخر للفلسفة يقترب في طبيعته من اليومي.

الفَلْسَفَةُ فنًّا في العَيْش

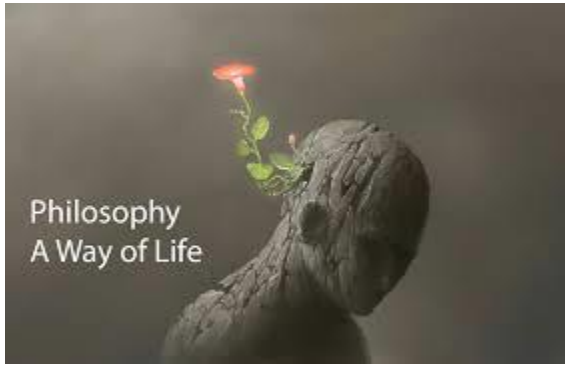

التَّحديد الذي نقصده هو من إجراء بيير هادو (Pierre Hadot)، أحد أهم المتخصصين في الفلسفة القديمة، والذي انكبَّ على دراسة «العَوَد الدَّوْري» لمفهوم الفلسفة وفق فكرة هادية وهي «الفَلْسَفَةُ طَريقَة في العَيْش». إذا سلَّمنا بأنَّ الفلسفة هي فنٌّ في العيش، «ذَلك أنَّ الخطَاب الفَلْسَفي لم يَكُن في "المدَارس" الفَلْسَفيَّة بنَاءً لمنْظُومَات نَظَريَّة أو مَذَاهب تُعَلَّم وتُنقَل من جيلٍ إلى آخَر، وإنَّما كانَ وَعْيًا بأسْلُوب عَيْشٍ، ودَعْمًا لسُلُوكٍ، وتَأسيسًا لنمطِ حَيَاةٍ»، فإنَّا نُسلِّم سلفًا بالوضع الأصلي للحياة وقيادتها للنوع البشري قبل كل بنيانٍ نظري أو عمرانٍ فكري.

الفَلْسَفَة، مَسْأَلَة تَحْوِيل

الشَّرط الأساس في الفلسفة هو ما سمَّاه هادو «**التَّحْويل**»، بأن يتحوَّل المتفلسف في ذاته فيما هو يُجري تحويلًا على موضوعاته. تقتضي المسألة إذًا حكمة عملية حدَّدها أرسطو في «**التعقُّل**» وليس فقط حكمة نظرية تُختزل في التأمُّل الهادئ: «لا تولِّد الحكمةُ المعْرفَة فحسْب، بَلْ هيَ تُولِّد كذَلكَ الكَيْنُونَة بشَكْلٍ آخَر». لنقُل بأنَّ الفلسفة ليست فحسب «نمطًا في المعرفة» بمجموع المعلومات الممكن تخزينها أو شحن الرَّأس بها، بل هي كذلك، وخصوصًا، «أسلوب في الوجود»، تُجري تحويلًا في كينونة الإنسان. إذا أخذنا الفلسفة بهذا التحديد العملي، فهو ينعطف بلا شك على اليومي الذي يحمل في جُعْبته كل ما هو عملي وفنَّان.

اليَوْمي، مَوْضُوعًا فَلْسَفِيًّا

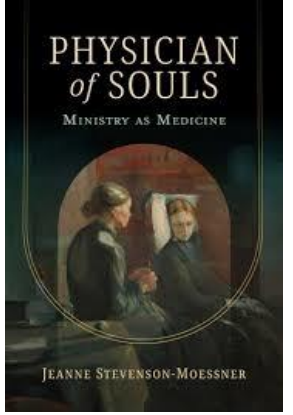

ربما لم يكن القدماء على وعي باليومي كموضوع فلسفي مثلما هم عليه المعاصرون الآن، لكن كما يُقال في علوم اللغة، كان «الرَّسم» ولم يكن «الاسم». لم يكن اليومي وقتها موضوعًا مباشرًا للبحث الفلسفي المعمَّق، لكن كان حاضرًا بمختلف الموضوعات المرتبطة به كالحياة السَّعيدة، وأسئلة الخلود والموت، ومسألة القلق ومداواة النفوس، وتدبير المنزل، وسياسة المدينة. بل إنَّ موضوع «**الطب الفلسفي**» الذي اشتهر عند القدماء عاد ليحتلَّ الصدارة اليوم مع ثلَّة من الفلاسفة أمثال بيير هادو نفسه، وميشال فوكو، وجان غرايش. على غرار القدماء، وبعد الانسحاب في العصر الحديث باسم انتصارات العقل والحداثة، عاد مبحث الفلسفة أفقًا للعيش وعلاجًا للنفس ليثير انتباه الفلاسفة المعاصرين، بالمقارنة مع تحدِّيات العصر وعلى رأسها العنف، والإرهاب، والقلق، والبيئة، والأوبئة، والتقنية، إلخ.

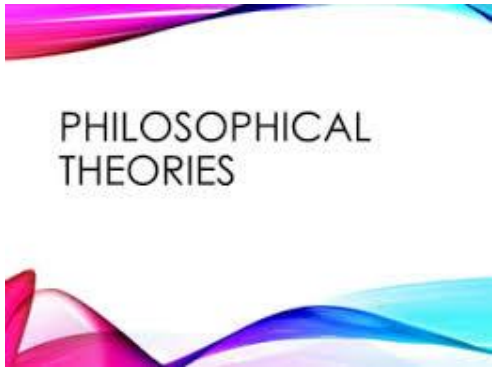

الفَلْسَفَة، سُلُوكٌ عَمَلِيّ لا نَظَرِيّ

دفعت هذه الظواهر لأن يُعيد العصر ترتيب أسئلته الفلسفية وفق أولويات عملية، تمسُّ المعيش المباشر للإنسان المعاصر، تاركًا الأسئلة النظرية للترف الفكري في الصروح المنعزلة من معاهد ومراكز البحث المتخصّصة. ينطلق هادو من الفكرة الهادية القائلة بأنَّ الفلسفة هي فنٌّ في العيش، والعيش هو الأساس المتين لليومي: «الطَّرِيقَة الفَلْسَفِيَّة في العَيْش هيَ بكُل بَسَاطَة سُلُوك الفَيْلَسُوف في الحيَاة اليَوْميَّة». تراءى هذا السلوك في الفلسفة القديمة التي انكبَّ هادو على دراستها، وتبيَّن له بأنها مدارس عملية في العيش الفلسفي أكثر منها تيَّارات فكرية أو مصانع في تركيب البراهين الفلسفية.

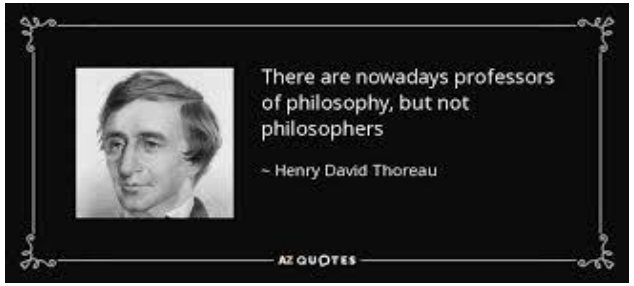

العَيْشُ وَفْقَ الحِكْمَة

إذا قمنا بتعداد الأهم منها، وهي الأبيقورية والرواقية والكلبية، فإنَّا نجد أنها جعلت من العيش الفلسفي والحياة السعيدة من بين الموضوعات المهمَّة التي تعاطتها وعملت على إبراز قيمتها بالنسبة للإنسان عبر رسائل فلسفية تصبُّ في مجملها في السؤال الأخلاقي للحياة اليومية: «الكل يَعْرف قصَّة دْيُوجين الكَلْبي الذي كانَ يَقْطُنُ في برْميل. لَقَد كَانُوا أنَاسًا يَرْفُضُون مَعَايير الحيَاة اليَوْميَّة والعَقْليَّة المعْتَاد عَلَيْها من طَرَف أشْخَاصٍ عَادِيين». وحتى عندما يُناقش عبارة هنري ديفيد ثورو (H. D. Thoreau): «ثمَّة اليَوْم أسَاتِذَة في الفَلْسَفَة ولا يُوجَد فَلَاسِفَة»، فإنَّ هادو يزيح الفلسفة من مجرَّد صنائع فكرية تُلقى على مسامع المتلقّي، في المدرسة أو الجامعة أو النادي، إلى وقائع في المعيش، لأنَّ هذه بالضبط هوية الفيلسوف: العيش وفق الحكمة والزُّهد في زوائد المتاع.

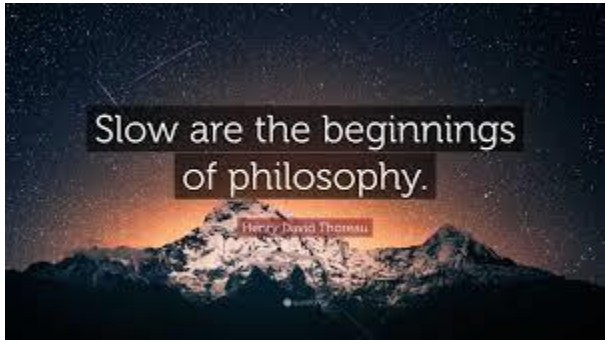

الفَلْسَفَة، دِفْءُ الحيَاة

من خاصيَّة الفيلسوف أن يحافظ مثله مثل غيره على ما يُسمّيه ثورو «الدِّفء الحيوي»، شيءٌ شبيه بالنَّار الرواقية، الحيَّة والفنَّانة، والتي تُذْكي العالم بالخير السَّهل والكينونة البسيطة. منظور ثورو هو البسائط لا المركَّبات. كلَّما كانت هنالك مُركَّبات، كانت المتاعب والآلام، وهذا في ذاته مضادٌّ للفلسفة ذاتها، التي تبتغي دفء الحياة وبساطة العيش. على المنوال الزهدي نفسه، وليس ثورو سوى امتداد للفلسفات العريقة، نجد لدى الأبيقوريين تقسيمًا للرغبات في ثلاثة أنواع: 1. الرغبات الطبيعية والضرورية مثل الأكل والشرب والنَّوم؛ 2. ثمَّ الرغبات الطبيعية وغير الضرورية مثل الرغبة الجنسية؛ 3. وأخيرًا الرغبات غير الطبيعية وغير الضرورية مثل الجاه والثراء.

الحيَاة البَسِيطَة

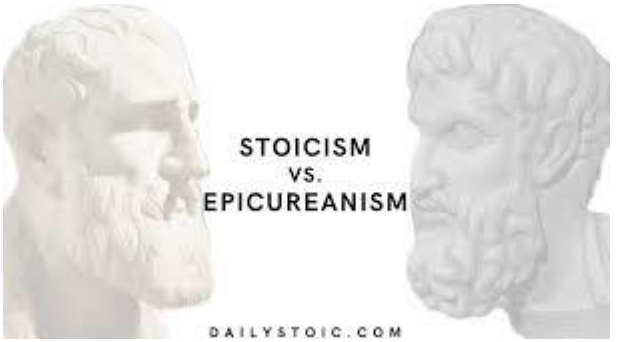

بالنسبة إليهم، تكمن الحياة السَّعيدة في الزُّهد في الرغبات الزائدة والمترفة، بالاكتفاء بالأهم منها وأعلاها شأنًا وهي الرغبة في المعرفة. ينبغي أن يكون اليومي مسألة «البسيط» لأنه أقلُّ عددًا وأزهدُ شأنًا. ما أن يخرط اليومي في «المركَّب» بتعدُّد الرغبات، فإنَّ مُسبِّبات الحياة السَّعيدة تنتفي وانسجام الذات مع ذاتها يختفي، وتظهر الأعراض المضادَّة من قلق وسوداء. شبَّه هادو الرسائل الأخلاقية لدى القدماء، خصوصًا الرواقيين منهم، بالرسائل التَّسويغية (Casuistique) التي كانت منتشرة في القرن السابع عشر وهي رسائل في السلوك القويم تُجاه وضعيات معيَّنة: «تَقُوم الفَلْسَفَة بإدَارَة الحيَاة اليَوْميَّة وتمدُّ أحْيَانًا بنصائح مفصَّلة».

الفَلْسَفَة، رِيَاضَة رُوحيَّة

إنَّ الحديث عن «الرِّيَاضة» يجرُّنا إلى النَّظر إلى الفلسفة نظرة مغايرة عمَّا اتَّخذته في تاريخها الطَّويل، بمعنى تغيير التَّعريفات الخاصَّة بالفلسفة وفق مقتضيات اللَّحظة. فلم تعُد الفلسفة نظريةً، ولا نسقًا، ولا مذهبًا، ولا تيَّارًا، بل أضحت ممارسة عملية المعبَّر عنها بالرياضة، وعلى وجه التَّحديد «الرِّيَاضة الرُّوحية». إنَّ الدَّور الذي تضطلع به الفلسفة في مهامّها الجديدة هو تثمين الرياضة الروحية، وعن الصفة «الروحية» يقول غرايش: «تُحيلُ إلى النَّفْس بوَصْفِهَا المحل الذِي تَتَدَرَّب فيهِ مَلَكَات الإنْسَان كُلها، ولَيْس فحْسب الملَكَات العَقْليَّة أو الإدْرَاكيَّة». لا يمكن اختزالها في الرياضة «العقلية» من تأمُّل وتفكُّر ونظر، ولا في الرياضة «الأخلاقية» من تقويم ومداواة. يشترط بيير هادو في الرياضة الروحية أن تكون «تحويلًا» معمَّقًا في الذات الإنسانية: «تَحوُّل في الرُّؤْيَة إلى العَالم وتَحوُّل في الشَّخْصِيَّة».

التَّحْوِيل في الرُّؤْيَة إلى العَالَمْ

معنى ذلك أنَّ التحوُّل يُطال «كائن» الإنسان برمَّته، وهو تحويل جذري، وليس فقط التغيير السَّطحي الذي يحدث على مستوى التَّفكُّر بفعل معلومات اقتناها أو مواعظ استوعبها. وعليه، فإنَّ الفلسفة تكتسب دلالتها من حيث التَّحويل في الرؤية إلى العالم الذي تُحدثه في المتفلسف. بهذا المعنى لا تكون الفلسفة فحسب مجموع المعارف التي نكتسبها أو النصوص التي نشرحها أو المذاهب التي نشايعها. إذا لم تُحدث الفلسفة في ذواتنا خلخلةً، وفي رؤيتنا للوجود تحويلًا، وفي سلوكنا ارتقاءً فهي ليست فلسفة بالمعنى النَّبيل للكلمة: «لا يَقَع الفِعْل الفَلْسَفي عَلى مُسْتَوَى المعْرفَة، بَلْ في نِظَام الذَّات والكَيْنُونَة: إنَّه تَطَوُّر يزيد من كَيْنُونَتَنَا ويُحَسِّن من وُجُودِنَا» (هادو).

التَّدَاوِي بالفَلْسَفَة

ندرك على منوال ذلك بأنَّ الفلسفة تسعى إلى الأفضل في وجود الإنسان في العالم، بتحسين مستمر في المَلَكات الحسيَّة والعقلية والنَّفسيَّة، وبالاشتغال عليها وتدريبها وإكمال ما نَقُص فيها من فضائل في الرؤية والسُّلوك، وبدرء ما تعكَّر فيها بسبب الرَّذائل والرؤى الطَّائشة والمعوجَّة. يقول هادو: «كلُّ رياضَة رُوحيَّة هيَ عَوْدَة إلى الذَّات تُحَرّر الأنَا منَ الاغْتِرَاب الذِي زَجَّتْهَا فيه الهمُوم، والانْفعَالَات، والرَّغَبَات» (هادو). وهذا يُفسِّر مشروعية «الطب الفلسفي» في دفع الغم ومداواة الانفعالات، والذي اتَّخذ تعبيرات مختلفة: «العلاجيات» أو «التَّداوي».

مُمَارَسَات فَلْسَفِيَّة

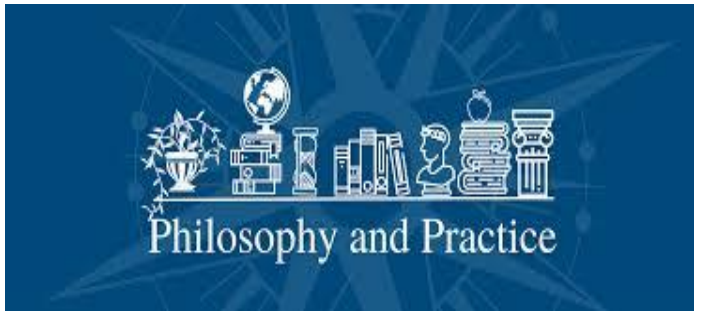

إنَّ مجموع الرياضات الروحية التي أوردها هادو وشرح غرايش مضامينها الفلسفية، تدلُّ كلُّها على أنَّ التَّحويل المنشود في الذات ليس المراد منه هجران اليومي أو الفرار من الواقع على شاكلة المتنسّك والرَّاهب. لا رهبانية في الفلسفة. بل إنَّ المبتغى هو التَّسامي باليومي وتحويل اليومي نفسه. لأنَّ بعض الممارسات الفلسفية العملية مثل تعلُّم العيش، والحوار، والقراءة، والموت، إنَّما تقع في اليومي وليس بمعزلٍ عنه. أورد هادو جُملة الرياضات الروحية التي دوَّنها فيلون الإسكندري ولخَّصها في البحث أوً التَّفتيش، والفحص المعمَّق، والقراءة، والإنصات، والانتباه، وضبط النَّفس، وتجاهل الأشياء الصمَّاء.